المحاضرة الاولى: الحركة الاستعمارية وبداياتها في إفريقيا وآسيا

1- تعريف الاستعمار:

أ - التعريف اللغوي: من الاستعمار كفعل اشتقت الكثير من المفاهيم ففي المعنى اللغوي تعني: من فعل عمر المأخوذة من العمران وهو عند ابن خلدون الحضارة أو كل نشاط يقوم به الانسان وفي مختلف المجالات لتعمير الأرض سواء في الزراعة أو النقل أو التجارة والصناعة والحرف والنقل...انها النظرة الخلدونية الشاملة لمعنى العمران وهي في الظاهر تحمل الكثير من معاني الخير لكن عندما ننظر إلى الممارسات نجد تلك النظرة القاتمة نتيجة للممارسات التي قام بها الرجل الأبيض في حق الشعوب.

ب - التعريف الاصطلاحي: فان لاستعمار هو ظاهرة تهدف إلى سيطرة دولة قوية على دولة ضعيفة وبسط نفوذها من أجل استغلال خيراتها في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وهي بالتالي نهب وسلب لمعظم ثروات البلاد المستعمرة، فضلًا عن تحطيم كرامة شعوب تلك البلاد وتدمير تراثها الحضاري والثقافي، وفرض ثقافة الاستعمار على أنها الثقافة الوحيدة القادرة على نقل البلاد المستعمرة إلى مرحلة الحضارة. من هنا فإن الاستعمار هو إخضاع جماعة من الناس لحكم أجنبي، ويسمى سكان البلاد المستعمَرين، وتسمى الأراضي الواقعة تحت الاحتلال؛ البلاد المستعمَرة. ومعظم المستعمرات مفصولة عن الدولة المستعمِرة ببحار ومحيطات. وغالبًا ما ترسل الدولة الأجنبية سكانًا للعيش في المستعمَرات وحكمها واستغلالها مصادر للثروة. وهذا ما يجعل حكام المستعمَرات منفصلين عرقيًا عن المحكومين.

2- بدايات الحركة الاستعمارية:

بدأت ظاهرة الاستعمار بمعناه الحديث عند مطلع القرن الخامس عشر، أدت حركة الاكتشافات الجغرافية إلى تسلط بعض الدول الأوربية على أجزاء كبيرة من العالم إفريقيا واسيا، واتضح هذا التسلط في أكثر من صورة بعد قيام الثورة الصناعية، إذ انتشر الاستعمار

على نطاق واسع وقسم ما يعرف حاليا بالعالم الثالث إلى مناطق نفوذ حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. وكانت فاتحة ذلك عندما تحرك البرتغاليون باتجاه الوجهة الأخرى من البحر، حيث احتلوا في أول محطة على الضفة الجنوبية للمتوسط مدينة سبته عام 1415 لتنطلق بذلك الآلة التوسعية التسلطية الاستعمارية في السواحل الغربية للقارة الافريقية باتجاه منطقة خط الاستواء فمنطقة الراس.. ومن هنا فإنا الفعل الاستعماري هو نتيجته، لتلك التوسعات التي بدأها البرتغاليون والتي كانت بدايتها افريقيا باتجاه المحيطات الكبرى وحيث ما حلوا أقاموا مراكزا للتموين والتمويل مستنزفين خيرات وثروات الشعوب وكان أولى ضحاياها الأفرقة. وحسب جاك بارك وشارل أندري جوليان وغيرهما فإن: "الاستعمار حركة توسع تاريخية للحضارة الصناعية، نبعت من بعض الأوطان، المحددة تاريخيا وجغرافيا، وسنقتصر هنا على التوسع الاستعماري بين 1415-1815م حيث كان الاستعمار خارج أوربا مقصورا على كل من البرتغال- اسبانيا- فرنسا- بريطانيا-هولندا".

أ- الكشوفات البرتغالية: مرت حركة الكشوفات البرتغالية بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: خلال القرن الخامس عشر ميلادي: ويمكن تقسيم الاستعمار الغربي في العصور الحديثة إلى مرحلتين أساسيتين أولهما تغطي القرنين السادس عشر والسابع عشر، وتركز على الاستعمار الاستيطاني لحد بعيد، وثانيهما تحتل القرن التاسع عشر ويسودها طابع الاستعمار الاستغلالي. كما يرتبط هذا التطور بالكشوف الجغرافية التي صاحبت التوسع التجاري في المرحلة الأولى فأنه يرتبط بالثورة الصناعية في المرحلة الثانية. وبدأت الكشوفات في نهاية القرن الخامس عشر أوائل القرن السادس عشر من قبل البرتغال الذي استأنف مع الاسبان الصراع الصليبي ليبدأ بذلك استعمارا كاثوليكيا موجها ضد الإسلام والمسلمين.

فمنذ غارات القراصنة الاسبان على المغرب وقبل الاسترداد النهائي لإسبانيا عام1492 أسس البرتغاليون قواعد عسكرية ومراكز تجارية في المناطق التي وصلت اليها سفنهم الاستكشافية كرأس الرجاء الصالح – الصومال وموزمبيق وبعض المدن الهندية كاليكوت-

فوا وبومباي التي اتخذها البرتغاليون قاعدة انطلاق نحو استعمار مالقا سنة1511 على يد البوكيرك، وكذلك التوغل حتى إندونيسيا.

ومن هنا يتضح لنا بأن البرتغال اتبعت سياسة محاصرة العالم الاسلامي والاستيلاء على المراكز التجارية الهامة لتنشيط التجارة البرتغالية[1] والقضاء على التجارة العربية الايطالية، وبطبيعة الحال لم يرض العرب والبنادقة بهذه السياسة، وكونوا حلفا عسكريا واشتبكوا بالقوات البرتغالية سنة1509 قرب ديو غير أن المستعمرات الاسبانية والبرتغالية الميالة للقائد البرتغالي ما لبث ان قضت على الاسطول المتحالف وبذلك أصبحت التجارة الشرقية تحت سيطرة البرتغال.

ولم يكتف البوكيرك الحاقد على المسلمين بذلك، بل وضع خطة عسكرية واقتصادية للقضاء على تجارة المسلمين والاستيلاء على مكة والمدينة ونقل المقدسات الإسلامية إلى روما أو رميها في البحر، لكن جيشه الذي أبحر إلى عدن لاحتلالها هلك نظرا لحصانة المدينة واستبسال المدافعين عنها، فتحول إلى شاه ايران الصفوي وعرض عليه التحالف ضد القوات العثمانية، لكن الأخير رفض أن يمد يده إلى الحاكم المسيحي ضد المسلم، وبذلك فشلت خطة البوكيرك في القضاء على المعالم الروحية الاسلامية على أن هذا لا ينفي نجاح البرتغال في احتكار تجارة الشرق عبر رأس الرجاء الصاح.

ولما حالف النجاح رحلة كولومبس، واعتقد البرتغاليون أن ما وصل إليه هذا البحار هو الهند استبد بهم القلق على مستعمراتهم الشرقية وكادوا يعلنون الحرب على اسبانيا، لولا تدخل البابا اسكندر السادس الذي حسم النزاع برسم خط وهمي يفصل بين مستعمرات الدولتين، وذلك وفق معاهدة توردیسیلاس1494.

وفاتحة المرحلة الاولى تبدأ بوصول البرتغاليين إلى طريق رأس الرجاء إنما قام على حساب المسلمين أساسا سواء كان تجاريا أم استراتيجيا حيث استقرت قوة البرتغال على كل ساحل الهند والمحيط الهندي. وبدأ البرتغاليون يعملوم بعد ذلك على ابعاد النفوذ العربي الاسلامي عن ساحل شرق افريقيا واستولو في القرن السادس عشر على جزر البحرين

[1]- لمعرفة المراكز التجارية الاولى للبرتغال في المتوسط والاطلسي انظر الخريطة في الملحق رقم 13.

واقاموا فيها الحصون، وظلوا بها نحو القرن كامل حتى تمكن العرب من طردهم. وفي العقد الثاني من نفس القرن هاجموا عدن مرتين ولكن بدون جدوى وكذلك فعلوا بمسقط حيث نجحوا في البقاء نحو نصف قرن .

وبذلك بدأ الاستعمار الغربي في العصور الحديثة حيث أسس البرتغال أول امبراطورية استعمارية إلا أنها لم تدم طويلا بسبب المنافسة الاسبانية في نهاية القرن السادس عشر حيث انتقل اهتمام البرتغال من الشرق إلى البرازيل التي جلب لها البرتغاليون الرقيق الافريقي بأعداد ضخمة مما جعلهم مؤسسي مدرسة الرق في العصر الحديث. وشملت الامبراطورية الاسبانية بعد ذلك وفي نفس القرن جزر الهند الغربية وامريكا الجنوبية حتى الارجنتين. ويمكن القول أنه إذا كانت أركان الاستعمار البرتغالي هي التبشير والتجارة والاستعمار الاستراتيجي الساحلي، فإن أركان الاستعمار الاسباني هي التبشير والمعادن النفيسة والغزو والاستعمار الاستيطاني.

المرحلة الثانية: مع نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر: في سنة1402 تم اكتشاف جزر كناري وجزر ما ديرة وجزر الاوراس. وفي سنة1445 تم الوصول إلى مصب نهري الكونغو والنيجر. وفي سنتي1487 و1488 تم الوصول إلى طرف افريقيا الجنوبي الذي سمي في البداية رأس الزوابع ثم ما لبث أن اسماه البرتغاليون رأس الرجاء الصالح. وتواصلت رحلات البرتغاليين حيث وصل فاسكو ديجاما إلى الساحل الغربي للهند عن طريق رأس الرجاء الصالح عام1498، واتجهت رحلة أخرى إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح عام1500 ورحلة ثالثة بقيادة دي جاما عام1502 بهدف توطيد النفوذ العسكري الحربي في المنطقة. كما تم الاستيلاء على مسقط عام1508، وعلى مضيق هرمز والانتصار على المماليك عام1509، ثم على جاوا سنة1510، وعلى ملقا سنة1511.

المرحلة الثالثة: تبدأ خلال القرن السادس عشر الميلادي: تميزت فيها حركة الكشف البرتغالي بالضعف، بسبب التنازع المستمر مع المماليك والعثمانيين وانتشار النفوذ الاسباني في البرتغال، ومناوشة الهولنديين للبرتغاليين في الشرق، وبسبب عدم القدرة على الدفاع عن المستعمرات الشرقية، كما ان احتكار البرتغاليين للتجارة أثار حفيظة منافسيهم الأقوياء في

أوربا. ولقد كان لاتساع حجم النفقات العسكرية دور في تراجع حركة الكشف البرتغالية، فأتاح المجال لدول أوربية أخرى في هذا المضمار. وهنا تبرز اسبانيا على حساب البرتغال لتصبح سيدة البحارالجديدة بعد أن تخلصت من المسلمين وبعد الهزيمة الساحقة للبرتغاليين في واقعة وادي المخازن، حيث تمكنت اسبانيا من اخضاع البرتغال.

ب- الكشوفات الاسبانية: مرت حركة الكشوفات الاسبانية بمرحلتين اساسيتين هما:

المرحلة الأولى: وتمتد طيلة فترة تولي الملك فرديناند للحكم ولغاية وفاته سنة1516 وقد تم تدشين حركة الكشوفات الاسبانية برحلة كريستوفر كولومبس سنة1492 من اسبانيا نحو الغرب مما أسفر عن اكتشاف جزر الباهاما وكوبا وهايتي ولقد قام كولومبس بثلاث رحلات أخرى غير رحلته الأولى، وهي رحلة عام1493 التي اكتشف خلالها جامايكا، أما رحلتا عام1498 و1502 فلم تكونا موفقين. وفي الفترة من عام 1499 ولغاية عام 1508 وصل الاسبان إلى مصب نهر لابلاتا وشواطئ البرازيل الاخرى. وبهزيمة الارمادا الاسبانية الشهيرة عام1588 من قبل بريطانيا انتهت اسبانيا كقوة بحرية، وظهرت قوى أوربية جديدة ممثلة في فرنسا وهولندا وبريطانيا. وهنا نلاحظ أنه بينما ركزت هولندا على الاستعمار التجاري خاصة تجارة التوابل خلال القرن السابع عشر، نجد أن بريطانيا وفرنسا قد اهتمتا كثيرا بالمواد الأولية الضرورية للتصنيع وباقامة الشركات الكبرى التي اعتبرت بمثابة دول نظرا للقوة التي امتلكتها والدور الذي لعبته في تكوين الامبراطوريتين الانجليزية والفرنسية، إنها الثورة الصناعية التي قلبت كل المفاهيم الاقتصادية في العالم.

المرحلة الثانية: وتمتد من وفاة الملك فرديناند ولغاية أواسط القرن السادس عشر. وقد تم تدشين هذه المرحلة، برحلة ماجلان حول الأرض من الغرب سنة1519، وقد نتج عن هذه الرحلة معرفة كروية الارض وتغيير التصور بشأن شكل الأرض وحجمها، والبرهنة على كبر الأرض بالقياس إلى التصورات السابقة. كما اسفرت رحلته عن اكتشاف القارة الأمريكية والمحيط الهادي، وفي عام1522 تم وصول الاسبان إلى غواتيمالا واستيلائهم عليها، ووصلوا سنة1526 إلى السلفادور واستولوا عليها، أما في سنة1524 فكانوا قد

وصلوا إلى كل من الهندوراس ونيكاراغوا ومع حلول عام1541 كانوا قد وصلوا إلى البيرو وتشيلي وبوليفيا.

ج - الكشوفات الهولندية: لقد تظافرت جملة من العوامل في مساعدة الهولنديين لكي يصبحوا سادة للبحار الشرقية طيلة فترة القرن السابع عشرو يعتبر القرن السابع عشر قرن الامبراطورية الاستعمارية الهولندية وذلك راجع إلى :

- تراجع الامبراطوريتين الاسبانية والبرتغالية.

- هزيمة الاسبان في معركة الارمادا 1588 أمام الانجليز.

- انفصال هولندة عن اسبانيا على إثر الحروب الدينية 1714.

- استقطابها لأثرياء العالم من اليهود الذين نزحوا إلى هولندة ونقلوا ثرواتهم إلى هناك ونشطوا حركة التجارة ضف إلى ذلك نزوح البرتستانت الفرنسيين من الطبقة الغنية بسبب الاضطهاد الكاثوليكي لهم وكل هؤلاء شجعوا ومولوا الحركة الاستعمارية خدمة للرأسمالية وفي سبيل تطويره.

- سيطرتها على الكثير من المناطق في جزر الهند الشرقية[2] والتي كانت من أسباب ثراء هذا البلد وخاصة أندونيسيا بثرواتها وخيراتها الى غاية1949.

- موقعها الاستراتيجي الممتاز عند مصب نهر الراين الموصل بتجارة أوروبا من وإلى أوروبا.

انشأ الهولنديون تجارة في جاوة منذ سنة1598م لما قهر الأميرال الهولندي البوكيرك أساطيل البرتغال والأسبان، فانتشر بعد ذلك نفوذ الهولنديين التجاري في كل جزائر الملايو وتوسع الهولنديين بسبب المعاهدات التجارية مع السكان، بإنشاء مراكز تجارية لهم، وباحتكارها مقابل حماية الأهالي من اضطهاد البرتغاليين لهم.

مراكزها التجارية في الشرق:

---

[2])- أنظر الملحق رقم :04.

من أهم المراكز التجارية التي حل بها الهولنديون في أوائل القرن السابع عشر جزر البهار بأندونيسيا ومدينة ملقا أعظم مركز رئيسي للبرتغال، فاستطاعوا بذلك التوغل أكثر إلى جزر أسيا الشرقية واستولوا على الجزر فرموزة، فتوطدت تجارتهم مع الصين واليابان ومناطق الهند الصينية، وامتد نفوذ الهولنديين أيضا إلى شواطئ الهند الغربية، جزيرة سيلان فاحتكروا تجارتهم مقابل حمايتها من البرتغاليين، واتخذوا مركزا تجاريا على الخليج العربي بندر عباس فتوغلوا داخل بلاد فارس، وتاجروا مع شواطئ بلاد العرب لما حلوا في مخا.

ثم أكتشفوا عدة جزر في آسيا، أنشأت الشركة الهولندية محطة تجارية لها جنوبي إفريقيا عند رأس الرجاء الصالح سنة1652م فعمرها الأوربيون ولا سيما الهولنديون، والهيجونوت الفرنسيون الذين فروا من اضطهاد لويس الرابع عشر1687م فتوغلوا إلى داخل المنطقة لاستغلالها.

رغم تأخر الهولنديون في حركة الكشف عن البرتغاليين والاسبان والانجليز، شأنهم في ذلك شأن الفرنسيين إلا انهم عندما بادروا في حملاتهم فقد أعطوها جهدا مميزا وتوسعوا فيها بشكل مثير. ففي عام1609 اكتشف الهولنديون خليج نيويورك وفي عام1616 اكتشفوا طريق رأس هورن واكتشفوا كلا من استراليا ونيوزيلندا بين عامي1622 و1624. وفي عام 1622 تأسست شركة الهند الغربية الهولندية ومنحت حقوقا تجارية واستعمارية في العالم الجديد وعلى طول ساحل افريقيا الغربي جنوبي مدار السرطان. وفي عام1634 استولى الهولنديين على كوركو في جزر الهند الغربية. وما بين عام1623 و1654 احتلوا مساحات واسعة من البرازيل. وفي سنة1652 احتلوا جزيرة سانتا هيلانا واقاموا مستعمرة لهم عند رأس الرجاء الصالح كما أقاموا محطات تجارية عديدة في كل من الساحل الهند الجنوبي الشرقي والموانئ في الخليج العربي واليمن، وركزوا جهودهم على احتلال أرخبيل الملايو فطردوا البرتغاليين من هناك وجعلوا من أنفسهم سادة على المنطقة، وقد اسسوا عام1642 محطة بحرية كبيرة في جزيرة فرموزه، سيطروا منها على التجارة مع الصين واليابان[3].

[3])- غالي بطرس: العلاقات الدولية في اطار منظمة الوحدة الافريقية، مكتبة انجلو- المصرية القاهرة، مصر، 1987، ص26.

د ـ الكشوفات الانجليزية: يمكن حصر حملات الكشف الجغرافي التي قام بها الانكليز في تلك الفترة التنافسية من تاريخ الكشف في حملتين فقط هما حملة عام1497 حيث تم الوصول الى الشواطئ امريكا الشمالية عند نيوفينلاند، وحملة سنة1498 إلى فلوريدا مما أدى بالإنجليز إلى استعمار جزء كبير من امريكا الشمالية. لقد أصبحت بريطانيا مع ذلك سيدة البحار الجديدة حيث تغيرت موازين القوى بفضل الثورة الصناعية والانقلاب الذي أحدثته في تغيير المفاهيم والأسس الاقتصادية العالمية إنه بحق عصر التصنيع.

تطلعت بريطانيا منذ القرن السادس عشر إلى بسط نفوذها على البحار الشرقية والهند، وقد حققت هذا التطلع بمساعدة العوامل التالية:

ـ وضعية العامة في الهند نفسها، حيث تفككت وحدتها وساد التنافس بين أجزائها. يعتبرالعامل الاجتماعي في الهند من الأسباب التي أوقعت هذا البلد في الاستعمار وذلك بسبب التركيبة البشرية المعقدة فمن حيث الأجناس تعدد الأعراق والقوميات أدى إلى صراعات طائفية أضعفت قدرة هذا الشعب وأضعفته ضف إلى ذلك تحالف بعض القوميات مع الأعداء ضد قوميات أخرى الأمر الذي سهل التدخل الأجنبي.

ـ من حيث الديانات: تعدد الديانات الكونفوشسية، البوذية، المجوسية، الهندوسية، الاسلام... وهي في صراع دائم وحروب طائفية أبعدت الهند عن الأمان وسببت له المتاعب وجلبت له الأخطار.

ـ انتشار الطبقية وانعدام الانسجام الاجتماعي ووجود فئة عريضة من المجتمع الهندي منبوذة مهمشة ومن هنا ما ابعد المجتمع الهندي عن الوحدة والانسجام والامان.

ـ كثرة عدد السكان في الهند جلب الأطماع للهند باعتبارها سوقا استهلاكية كبيرة وهذا ما كان يبحث عنه الاستعمار.

ـ الانتصار الحربي الذي حققه الأسطول البريطاني على الأسطول الاسباني في معركة الارماد سنة1588 حيث تحطمت على إثرها قواة اسبانية بحرية.

- تأسيس شركة الهند الشرقية الانكليزية التي نافست اقرانها الهولندية والفرنسية على النفوذ في الهند والبحار الشرقية[4].

- ظهور الشركة المتحدة الانكليزية لتجارة الهند، وقيمها على أساس متينة اضعفت من النفوذين الفرنسي والهولندي في الهند الأمر الذي أسفر عن إفلاس الشركة الفرنسية وتدهور أوضاع الشركة الهولندية.

[4])- تشمل البحار الواقعة في الشرق الاقصى وهي خاصة بحر الصين وبحر اليابان.